

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

«كل ما فأنك - من الله سوى الله - : يسير ، وكل حظ لك ، سوى الله قليل » .

بهذه الحكمة البالغة التي نطق بها أبو سعيد : نبتدئ الحديث عنه ، ولا نبتدئ بهذه الحكمة اعتباطاً ، ولكن لأنها محور تفكيره .
لم نخدعه زخارف الحياة الدنيا ، ولم تلهه مفاتها ؛ فاختط لنفسه طريق الصديقين ، وسار على نهج أولياء الله ، رضى الله عنهم .
لقد ابتدأ - كما تبتدئ الصفوة المختارة - باحثاً منقياً عن الله ، فوجده ظاهراً في آثاره :

لقد وجده في النسمة العلية ، وفي الزهرة الندية ، وفي النجم المتألق ، وفي شعاع الشمس الذهبي ؛ لقد وجده في الخير ، وفي الجمال ، وفي الجلال ، فأحبه وهام به . وكانت حالته ، كما يصف هو ، فيقول :

«والحب يتعلل إلى محبوه بكل شيء ، ولا يتسلى عنه بشيء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره »

وكثيراً ما أنشد تعبيراً عن حاله أيضاً :

أسألكم عنها ، فهل من مخبر ؟ قال ينعم - مذنات دارها - علم !

فلو كنت أدري أين خيم أهلها ؟ وأي بلاد الله - إذ ظنوا (١) أموا (٢) !
إذن لسلكنا مسلك الريح خلفها ولو أصبحت نعم ، ومن دونها النجم !
وكثير من الناس من يفيض الله عليه النعم ، ويمتنحهم من جوده
فينعمون بما أنعم لاهين عنه ، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ ،
غير متجهين إليه سبحانه .. !

أما أبو سعيد : فكان مسلكه ، وكان شعاره شيئاً آخر .. إنه يعبر عن
منهجه حين يقول :

« ينبغي أن يكون فرحك في العطاء : بالمعطي ، ولذتك في
اللذات : بخالق اللذات ، وتتمتعك في النعم : بالمنعم دون النعم ، لأن
ذكر النعمة ، عند ذكر المنعم : حجاب ، ورؤية النعمة ، عند رؤية
المنعم : حجاب » ويشرح حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :
« جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .. »
فيقول : « واعجباً ممن لم ير محسناً غير الله ، كيف لا يميل بكليته إليه ! !
وفي الاتجاه إلى الله : نعيم لا يعدله نعيم ، ولذة لا تعدلها لذة ...
وإذا نعم الناس بملبس يلبى ، أو بمطعم لا تلبث حلاوته أن تزول ؛ فإن

(١) طعنوا : ارتحلوا وسافروا .

(٢) أموا : قصدوا وانجهوا .

لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار!!^(١).
إن لهم نعيمهم الروحي ، ولكن لهم أيضاً نعيم أبدانهم الطيب
الطاهر .

يقول أبو سعيد :

«إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره ، والوصول إلى
قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزل نصيبهم
من كل كائن» فعيش أبدانهم : عيش الجنانين (أهل الجنة) ،
وعيش أرواحهم : عيش الربانين .

ولاعجب ، بعد ذلك ، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخذان ،
أن يكون أنس ألى سعيد بالله ؛ ولاعجب أن يكون حديثه عن الأنس
بالله : يمتاز بالدقة والوضوح .

يقول أبو سعيد ، وقد سئل عن الأنس بالله : ماهو ؟ :

«استبشار القلوب بقرب الله تعالى ، وسرورها به ، وهذوؤها : في
سكونها إليه ، وأمنها : معه ، من حيث الروعات ، وإعفاؤه لها من كل
مادونه : أن تشير إليه ، حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به ولاتحمل
جفاء غيره »

(١) الأوضار : جمع وضر ، والضر : وساخة الدسم واللين ... القاموس .

حياته :

بغدادى النشأة والمنبت ، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى
تقريباً ، واشتهر بأبى سعيد الخراز ، واسمه : أبو سعيد أحمد بن عيسى
الخراز .

وقد صحب ذا النون المصرى ، وسرياً السقطى ، وبشر بن
الحارث ، ونظراءهم .

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول :

« هو : من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم »

ويذكر أنه قيل :

« إنه أول من تكلم فى علم الفناء » .

أما صاحب الخلية ، فإنه يقول عنه :

« ومنهم : العارف المعروف الكامل ، بالبيان موصوف ، له الكتب

المذكورة ، والأجوبة المشهورة ، صحب ذا النون ونظراءه ، انتشرت

بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء »

ويتحدث مؤرخوه ، كلهم تقريباً : بأنه روى الحديث التالى

بإسناده :

« سوء الخلق : شؤم ، وشراركم : أسوأكم أخلاقاً » .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته :

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية : سنة سبع وسبعين ومائتين .
ويذكر صاحب الطبقات : سنة تسع وسبعين ومائتين .

رأيه في المعرفة :

يهدف الصوفية دائماً ، إلى معرفة ما وراء الطبيعة معرفة يقينية ،
ولكن كيف تتأتى المعرفة ؟

إنها - حسبما يرى أبو سعيد - : « تأتى القلب من وجهين : من عين
الجود ، ومن بذل المجهود »

إنها فيض من الله ، وإنها اكتساب وجهد ، وفي الوصول إليها
السعادة ، بيد أن طريقها - وهو نفس الطريق إلى الله - : ليس سهلاً
هيناً ، وإذا كانت الغاية نفيسة فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافهاً .

كيف نصل إلى الله ؟ ماهو الطريق إليه ؟ كيف نصل إلى خالص
العلم ؟ كيف نرد على حياض المعرفة ؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله ، فبين أنه :

التوبة ؛ ثم ذكر شرائطها ؛ ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية ؛
وهو : طريق نفسانى سيكولوجى ؛ من أدق مايكون ، يتقل فيه الإنسان
من مرحلة إلى مرحلة ؛ مترقياً من مقام التوبة ؛ حتى يصل إلى مقام
المحبين ، ويترقى إلى مقام المقربين .

فاذا وصل إلى هذه المرحلة ؛ أدمنت روحه النظر فى النعمة ؛

وفكرت في الأيادي والإحسان ؛ فانفردت بالذكر ؛ وجالت في ملكوت عز الله ، بخالص العلم به ، وارادة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة . فنعمت وسعدت .

ولنذكر ذلك بأسلوبه ، نقلا عن كتاب : «حلية الأولياء» :
قال أبو سعيد :

« إن أوائل الطريق إلى الله : التوبة »

وذكر شرائطها .

« ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف .

ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء .

ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين .

ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين .

ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين

ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين .

ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين .

ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء

ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين .

وذكروا لكل مقام عشر شرائط ، إذا عاناها وأحكمها ، وحلت القلوب هذه المحلة : أدمتِ النظر في النعمة ، وفكرت في الأيادي والإحسان .

فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه
بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، وليابه قارعة ،
وإليه فى محبته ناظرة .

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سوادَ الليل أنساً بذكره وشوقاً إليه ، غيرَ مستكره الصبر
ولكن : سروراً دائماً ، وتعرضاً وقرعاً لباب الرب : ذى العز والفخر
فحالهم : أنهم قربوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ،
ونورت قلوبهم ، لكى ينظروا إلى ملك عدن ؛ بها يتزلون ، فتاهوا بمن
يعبدون ، وتعززوا بمن به يكثفون .

حلّوا فلم يظعنوا ؛ واستوطنوا محلته ، فلم يرحلوا ، فهم الأولياء ،
وهم العاملون ، وهم الأصفياء ، وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب ، هم به آمنون ؟ وعزوا فى غرف ، هم
بها ساكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فلمثل هذا فليعمل العاملون «
فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة ، هل يتأقن له أن يعلم ما يخالف
الشريعة ؟

هل الباطن ، وهو المعرفة التى وصل إليها ، يخالف الظاهر ؟

هل الحقيقة تخالف الشريعة ؟ !

يقول أبو سعيد كلمته الخاسمة :

(١) حلبة الأولياء المجلد العاشر ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

كل باطن يخالف ظاهراً : فهو باطل .

* * *

وكتاب الصدق - وهو الوحيد الذى بقى من آثاره ^(١) ، والذى تقدمه اليوم ، مغتربين ، إلى القراء - : كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ، لأنها ذخيرة نفيسة ، لا يصح أن تبتذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة ، لا يستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء .

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة ، يرسم - فى دقة وفى وضوح - الطريق إلى الله ^(٢) ! !

عبد الحليم محمود

(١) لقد كان كتاب الصدق ، هو الكتاب الوحيد إلى عهد قريب جداً . ثم اكتشف الأستاذ آربرى مجموعة من رسائل الخراز ، ضمن مخطوط يحتوى على كتب ورسائل صوفية . ولقد حقق الأستاذ الدكتور قاسم السامرائى ما يخص الخراز فيها ، ونشر فى مجلة المجمع العلمى العراق : المجلد الخامس عشر سنة ٦٧ كتاب الصفاء ، وكتاب الضياء ، وكتاب الكشف والبيان ، وكتاب الفرع ، وكتاب الحقائق فجراه الله خير الجزاء . وقد وقعت هذه الكتب فيما يقرب من أربعين صحيفة .

(٢) كتب الإمام الأكبر رضى الله عنه بعد ذلك مقدمة مختصرة للطبعة الثالثة من الكتاب ، تقتطف منها ما يلى .

إن المسلمين الأول علموا الحقيقة البديهية . وهى : أن المجتمعات ؛ لا تقوم إلا على الأخلاق .

لقد كان واضحاً فى أذهانهم ، مقاله شوق رحمه الله :

=

.....
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
لقد كتبوا - رضوان الله عليهم - كثيراً في الأخلاق ، ليبينوا بذلك الأمة الإسلامية ،
لتكون في مراكز القيادة في هذا الجانب .

وأخذ الكتاب ينشرون الفكرة الإسلامية ، من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية
الشريفة ، وسلوك الرسول ﷺ ومن تبعه من الراشدين المهديين .
وبعض الكاتبيين التزم في ذلك القرآن والسنة فحسب ، كما فعل الإمام النووي رضوان الله
عليه في كتابه النقيس «رياض الصالحين» وكما فعل الإمام الحافظ المنذرى في كتابه المبارك :
«التروغيب والترهيب»

وبعض الكاتبيين اتخذ القرآن والسنة أساساً ، ثم استفاض في ذكر آراء الأسلاف السابقين ،
وذكر حكايات عنهم : تهدي الإنسان إلى الرشد ، وتقوده إلى الصراط المستقيم .

من ذلك : الكتاب الخالد «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي .
وكل كتب الأحاديث ، وكل كتب تفسير القرآن ، إنما هي على وجه العموم - تربية
للشخص نسير به إلى المثل الأعلى .

وهذا المثل الأعلى ، إنما يتمثل في معنى كلمة «الإسلام» أي العبودية المطلقة لله سبحانه
وتعالى ، والخضوع المطلق له وحده .

وإنما يتمثل ذلك في قوله تعالى لرسوله الكريم :
(قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُكِمْتُ وَمَحَيَّائِي وَمَاتِي اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا
أول المسلمين) .

إن الهجرة إلى الله : أسساً وبواعث ، وغاية وأهدافاً وكيفية ، يضمنها كتاب الله وسنة
رسوله .

وماتضمنه كتاب الله وسنة رسوله معصوم :
(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) .
ومن أجل ذلك : نشأت أسلافنا - رضوان الله عليهم - بهذه العصمة ، وكتبوا في ذلك ، -

.....
- متحذرين القرآن ، وسلوك رسول الله ﷺ وأقواله : القدوة الحسنة ، والأسوة الكريمة .

واهتدى بهديهم ملاحصر له من الأفراد .

وخلف من بعدهم خلوف : اتجهوا - في عصرنا الحاضر - إلى «أوربا» يستمدون منها السلوك . وتفرقت بهم الطرق ، ونشئت بهم الأهواء ، وفسد بهم وآرائهم الكثير .

وكان لابد من العودة إلى النهج السلي .

ومن هنا ، كان حرصنا على نشر هذا الكتاب النفيس «كتاب الصدق» .

والله نرجو أن يهدي له ، وأن يهدي به ، وأن يجعله من اللبئات التي يتكون منها الجو

الأخلاق الذي يعتصم بالله سبحانه وتعالى :

(وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .